

الأساطير العالمية

د. أحمد كمال زكى *

فى الدائرة الكبيرة التى تشغلها العلوم الإنسانية تذكر الأنثروبولوجى Anthropology علم الإنسان، من البادئة anthropo ، ومعناها إنسان، واللاحقة Logy ، ومعناها علم أو نظرية أو مذهب، وهذا العلم يبحث عن أصل الجنس البشرى، واعتقاداته، وتقاليده. وفى عام ١٨٨٤ وضع فيه العالم سير إدوارد تيلور اصطلاح Cultural - anthropology يخص به المعارف الثقافية التى تهتم بها الأنثروبولوجى من طقوس وصلوات ورقص وحكايات خرافية Fables وشتى العبارات التى تجرى مجرى الأمثال والحكم. ويطلق على هذه الأنواع اصطلاحاً ethnology ، ethnography لدى علماء الأنثروبولوجية الأمريكية بجانب علمى الآثار واللغة .

تسميته بالآثار الشعبية القديمة - Antiqui- ties على أساس أنه جماع المعتقدات الخرافية التى لا يزال إنسان هذا القرن يتلقطها من الحياة الموهلة فى القدم، وتظهر له أحيانا فى الحلم مثلما تظهرها المرويات الماثورة وسائر المدونات والنقوش والصور وغيرها من ضروب الماثورات الشعبية المتنوعة .

وقد وضع باسكوم Bascom الأمريكي أن الفولكلور Folklor من تلك الأنواع نفسها؛ فهو يهتم بالمعارف الشعبية ولا سيما الفن القولى والمتعلقة أنواعه بالأدب. وأما الكندى باربو Barbeau وبعض علماء أمريكا الجنوبية فأطلقوا على كل هذه جميعاً اسم التراث الشعبى Folk Tradition ، وأثر سير ويليام تومز

* أستاذ الأدب المقارن والنقد الأدبى بكلية الآداب جامعة عين شمس .

من تلك الأفكار والمعتقدات والتصورات والطقوس المعرفية فى تاريخ الجنس البشرى. بمعنى أن الأساطير تؤخذ - كالحكايات الشعبية - مأخذ سائر الموروثات الثقافية التى تراكمت على مدى العصور وتكون بعضها أو أغلبها فى الملاحم، بل إن بعض الدارسين - بعيداً عن الأدب - يقصرها على الأنثولوجيا؛ فتكون فى أوسع مجال لها مطابقة للمفهوم الأمريكى للأنثروبولوجيا الثقافية فى سعيها الدائب إلى تقطيع الفجوات الزمانية التى يسكت عنها التاريخ الموثق .

صحيح نجد خلافاً حول جوهر الأساطير .. أهى تجميع لشتى حكايات خرافية قديمة، أم مجموعة أبنية طقوسية عبادية تفتت على مرّ الأيام إلى حكايات استحال بعضها إلى رموز فى آداب العالم، وتذثر بعضها الآخر بدثار سماء كارل يونج - عالم النفس المشهور - باللاوعى الجماعى المنشئ للنماذج العليا، أو النماذج الأولية Archetypes فى تصوراتنا العامة.

وفى كل الحالات تُعدُّ الأساطير الأساس الإدراكى لما يرويه التاريخ الوثائقى والنصب الأثرية عن مصر القديمة والهلال الخصيب والإغريق، وعن تفاعل عناصرها السكانية - الساميين والآريين و الهاميين - بعضهم ببعض . ليس فى تأكيد الجينات القومية

وأراح الألمان أنفسهم - ومعظم دارسى أوروبا - عندما سمو الآثار الشعبية فى دلالتها على الأنثولوجية بالفولكسكنديه Volks Kunde المعنية دائماً بالأدب الشفاهى، وفى مقدمته الحكايات والأهازيج الشعبية التى لا يعرف لها مؤلف بعينه كالأمثال والنوادر anecdotes والملاحم epics والعادات الاجتماعية التى تصور حياة البيت وطقوس العبور وترويج الملك وحمل التماائم، وطبع الكفّ على الحائط بالدم أو بالنيلة، كذلك تشييع الجنائزات على أنغام الموسيقى وعروض السامر، ونحو ذلك مما ينقل من شخص إلى آخر أو من جيل إلى جيل على أساس أنها مكوّن قومى دارج.

ونخلص من كل ذلك إلى أمرين: أولهما أن مفهوم الفولكلور أو الفولكسكنديه أو الأنثولوجية أو التراث الشعبى، أو الماثورات الشعبية يشمل الفنوان القولية - منثورا ومنظوما - بجانب العقائد والعادات الاجتماعية والمعارف القديمة. وثمة إجماع على أن هذا المفهوم وتلك الدلالة، أحد الفروع المستقلة للأنثروبولوجيا، ويجب العناية به لمعرفة أبعاد الحياة الثقافية المتحضرة .

هذا هو الأمر الأول، وأما الثانى فهو أن الأسطورة - وقد صارت اليوم مكوّنًا مهما من مكوّنات الآداب العالمية المتحضرة - جزء

تنشأ الأساطير والطقوس الجنائزية وعمليات السحر ونمو النبات - فيما يبدو - عن حاجة الرجل البدائي إلى تفسير الظواهر الطبيعية تفسيراً قائماً على العقل، لكن هذه نشأت استجابة لعواطف الجماعة القاهرة». يريد استجابة لما تقع عليه أعينهم من ظواهر طبيعية، وما يحاولون به أن يعللوا بعض مشكلات الإنسان في الحياة .

وفي مرحلة تالية - وقد كثرت الأسئلة واشتجرت الإجابات عليها - تراكم تراث معرفي من الأساطير، وصاحب هذا التراكم ماثورات دارجة Popular antiquities تقصّ أطرافاً من علاقات الناس بمختلف معبوداته وأنواع مقدساته التي يطلق عليها اصطلاح الطوطم Totem . وهنا أو على هذا النحو توفرت بين أيدينا مجموعة أساطير أبرزها الأسطورة الطقوسية، والأسطورة التعليلية، والأسطورة الرمزية، ثم الأسطورة التاريخية المؤسّسة .

الأولى من الأربع مرتبطة أساساً بطقوس العبادة، وأهم ما فيها الجزء الكلامي المصاحب لعملية تقديم القرابين. ولقد زيد في هذا الجزء حتى غلبت عليه حكايات عن سير الآلهة القديمة، وفي تراثنا منهم يغوث، ويعوق ، ونسر، وفي الأبعد عند المصريين الأوائل أناشيد إيزيس تحكى فيها عمليات الخلق. ويصاحب السرد ترتيل نسوة

المتباينة، أو إنكارها فحسب، وإنما كذلك في مراجعة التتابع المنطقي الذي يقدم لنا صورة دقيقة لتطور الإنسان من بدائية غيبية إلى حضورية ملموسة. هذا على الرغم مما يعتريها أحياناً من أفكار هلامية متسللة من المراحل المبكرة وتتسع لها الحكايات الشعبية .

الأسطورة إذن أو الميث Myth - وقد سماها أرسطو خرافة - من سلالة هذا الجانب المعرفي للإنسان، وليس هناك شعب من شعوب الأرض خلا تراثه من بعض أنواعها. ويعكف العلماء عليها جعلَ لها علم في الثقافات العالمية هو الميثولوجي My-thology نظرية تقرر - في إيجاز - أن أبطال الحكايات الشعبية لا وجود لهم تاريخياً أو واقعياً، لأنهم يستنتجون دائماً إلى موروث شعبي خارق انحدر من أساطير الأولين وخرافاتهم منذ آلاف السنين .

وتبدو الميث / الخرافة هنا - وأعني بها مادة الأسطورة - أقدم مصدر لجميع المعارف الإنسانية. ومن هنا ترتبط الميث / الخرافة دائماً ببدائيات البشر وقبل أن يمارسوا السحر، وكانوا يديمون التأمل في إجاباتهم عن أسئلة كونية يطرحونها على أنفسهم: ما الشمس - مثلاً - ومن يسوقها ويسوق الرياح، ويشعل النار في قصف الرعد. وهنا يقول ليفي برونال الفرنسي «لم

عظام أوزيريس تخويفاً للرعية. وقد نشب صراع بين الرعية وبينهم من حيث كونهم علماء قادرين، وحثوا من تأويلات الشعب لكل ما يراه مثيراً، أو محبطاً لأعماله .

لكن التحرر من هيمنة الكهنة - بسحرم - جاء بعد نمو العقل بوجه عام، ووجدت من تراثهم مجموعة هائلة من الحكايات تضمنت حشداً من تفسيرات لعمليات شروق الشمس وغروبها، وازدهار الأرض في الربيع وجذبها في الشتاء، وبثورة البحر أو هياج النهر، وطلوع القمر واختناقها، ووجود البقع في جلد الفهد، أو ما يجرى هذا المجرى مما يلفت النظر.

وأما الأسطورة الرمزية - وهي النوع الثالث من الأساطير - فقد ولدت في مرحلة زمانية كانت أكثر تعقيداً وتقدماً فكرياً. وربما كانت تتاجاً للأسطورة التعليلية إذا لاحظنا أنها تصور بطريقة مجازية أفكاراً دينية، أو كونية. وعدّها المشتغلون بتاريخ الحضارات رقيقاً للأساطير التعليلية، وقد شكلا معاً بدايات العلم قبل عصر الفلسفة والديانات السماوية .

ويجىء الرمز من مثل ما حاكته الروايات العربية عن سهيل والشعري اليمانية والغميصاء؛ فقد هذه الغميصاء - أو الغموص - في مجرة واحدة مع الشعري

يصنعن دُمى ترمز لأوزيريس الممزق، ويلقيان بها في نهر النيل بغية أن يعود أوزيريس إلى الحياة ثانية. ولتلك الأسطورة - وقد تسمى بأسطورة البعث - أصول نقشت ضمن نصوص التوابيت، ويرجع تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد . وعند البابليين من هذا النوع الأسطوري نصّ إينوما إيليش Enuma Elish الكامل ، وهو نشيد ترميى يقدمه كهنة بابل في أثناء طقوس جنازية تؤدى كل أول عام عند البابليين. ويقرر صامويل هوك في كتابة أن هذا النشيد يمثل أسطورة الخلق^(١) .

وأما الثانية - أعنى التعليلية - فلم تجد طريقها إلى الوجود إلا بعد انتشار وجود كائنات خفية إزاء ما هو قائم من الظواهر الطبيعية، يربط بينهما سحر الكهنة، وتمارس طقوسه في حالات انفجار البركان وقصف الرعد وانشقاق الأرض عن سوق النبات التي تزرع، ونحو ذلك من منطلق كهنوتي يؤكد أن وراء تلك الظواهر أرواحاً لا بد من استمالتها بقرابين وأضاح تقدم لها. ويمرور الأيام ظهر أن سحر الكهنة - ولديهم كان علماً سرياً - يستهدف تحقيق رغباتهم . ومن هنا لا تعجب حين يروى تاريخ الفراعنة أن السحرة ادعوا قدرتهم على إخضاع الآلهة لهم، بل هدبوا ببعثرة

(1) Middle Eastern Mythology . P.P 12 , 23 .

وينجاح حورس فى قتل عمه الذى قتل أباه ومزق جسده، تم توحيد الشمال والجنوب الأول مرة فى التاريخ. وقد وجد المصريون القدماء - علي ما جاء فى شروح كتاب الموتى - أن الصراع اليومى للشمس ضد الظلام يمكن أن يفسر بسهولة صراع حورس الأوزيرى مع ست انتقاما لأبيه^(١).

ومن قبل هذا التفسير للمجازات، نفسر قولنا «الأرض أمنا» و «جميل القوم جمل» و «والى التراب نعود» على أساس كونها إشارات إلى وقائع تضرب فى أعماق التاريخ!

وأما النوع الرابع من الأساطير، فيمكن تسميته بالأسطورة الملحمة Legend Myth وجماعها تاريخ وخرافة. وبعض باحثى الأنثروبولوجى - جون لويس - يرى أن بطلها كان فى مرحلة من مراحلها إلهاً، أو نصف إله ثم صار كاهناً، أو رجل دين. على أنها فى تضمنها عناصر تاريخية وخوارق تزجى فى سياق الحكايات، تتحدد فيها أماكن بعينها على خارطة الدنيا، كطروادة - مثلاً - ومأرب وقرطاجنة والأشمونين. وهذه الأخيرة تقع بمحاذاة المنيا وأصلها «شمول بيتا» كانت عاصمة الجنوب وسكنها الإله تحوت منذ كان اسمها «خمينو»، وسميت فى القبطية «خن»^(٢).

اليمانية، وكانت تعشق سهيلاً الذى أوقعته الشعرى فى حبائها وهربت به إلى اليمن، وحزنت الغميصاء وظلت تبكى حتى غمضت عينها، وهكذا تبدو دائماً فى السماء أسيفة موجعة.

وربما لو قرأنا أسطورة كرونس عند الإغريق لفهمنا التفسير الرمضى على نحو أكثر وضوحاً. فلقد كان كرونس أحد التياتن Titans ابنا لأورانوس (السماء) وجيا (الأرض). واعتاد أن يأكل أبنائه لأنه أنبىء بأن أحد أبنائه سينافسه فى القوة والجبروت. ولما أنجب زيوس - وقد صار كبير آلهة الأوليمب - فاته أكله، ففضى زيوس على جميع التياتن إلا كرونوس وفئة قليلة منهم بروميثيوس، وصار كرونوس رمزاً للزمن الذى لا يفنى ويَفنى الآخرين.

وفى تراث الفراعنة - وهو أساس لما انتشر فى الهلال الخصيب من أساطير - نرى المعنى الرمضى يتجلى فى أن الصراع الذى نشب بين أوزيريس وشقيقه وخصمه، ثم بين ست وحورس مقابل لظهور ثلاث ممالك فى مصر تصارعت على السيادة. وهذه الممالك هى مملكة شرق الدلتا الأوزيرية، ومملكة غرب الدلتا الحورسية، ومملكة الجنوب التى كانت فى حوزة ست.

(١) كتاب الموتى : ص ٢٥٣ .

(٢) السابق ص ١٤ ، ١٩٤ .

تلك التي تعرض للعبور . ومنها رحلة المخاطر في سبيل تولية العرش الملكي المقدس، وهجرة الأبطال قبل إقدامهم على عمل كبير يتعلق بأمر المعتقد، أو العبادة. ومن هذا القبيل حكايات الآلهة والإلهات، وتفترق عن غيرها في أنها لا تتضمن عناصر تاريخية ولا تعرض لنظام القبيلة، أو الأسرة وسياستها. بل قد لا تقف عند المعتقد الديني، ولا تعنى بقوى السحر الخارقة.

وأشهر الإلهات الكبرى، الأرض ربة الخصب والمعبودة الأولى . وهي عند اليمانيين عثتر وعند البابليين والسوريين عشتار، وعند المصريين إيزيس، وعند الإغريق جيا. وكان القمر في أول أمره - عند غير العرب - أنثى ذات ثلاثة أوجه تمثلها هلالا يرمز للأنثى الشابة، ويدراً يرمز للمرأة الناضجة Mature ومحاقا يرمز للعجوز المسنة . وباحتلال الشمس مكانة القمر ارتبطت بها ثلاثية أخرى هي الربيع والصيف والشتاء، ورمز للربيع بعذراء شابة، وللصيف بإمرأة مكتملة والشتاء بإمرأة حيزبون. وهناك ثالث آخر قوامه وجود إلهة للنسيم Silene وإلهة للأرض والبحر هي Aphrodite وإلهة شمطاء Hecate لعالم ما تحت الأرض والبحر هي

وبعد هذا النوع من الأساطير أبدع ما أفرزته حياة الأولين، ولعل ملحمة جلجاميش البابلية - وهي أهم في القيمة التراثية مما أثر عن الإغريق - أقدم ما حفر على ألواح الطين بحروف عربية بابلية، وترجمت إلى الآشورية والحثية والصورية، كما وجدت قطعة منها في مجدو Magiddo - فلسطين - بالكنعانية وترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وقيل فيها إن مؤلفي التوراة الأوائل كانوا على علم بها^(٣).

ومن الضروري على أية حال أن نحتاط بعض الشيء فنفرق بين ضربين من الحكايات في الأسطورة الملحمية. أولهما يعنى بأبطال دخلوا أساطير الرموز - مخاطبين شتى القوى الفكرية والروحية - من أوسع الأبواب كنوديب وسيزيف وأوليس وجلجاميش وزرقاء اليمامة ومضاخ الجرهمي . وثانيهما دخلوا التاريخ بعد أن طمست أعمالهم أوزيد فيها وحرف ، ومن هؤلاء رولان وأندرياس وهانيبال وشمشون، وقد تكون أعمالهم التي بين أيدينا مختلطة بأعمال غيرهم من الغزاة التاريخيين، أو الأبطال الخرافيين.

هذا وتدخل الدائرة نفسها ضروب أخرى من الحكايات الأسطورية وبخاصة

(١) هو الذي رأى ، بيروت ص ١٠ .

فماذا يعنى كل ذلك؟

يعنى أن الأسطورة - وقد صارت لحمه علم هو الميثولوجى - ليست من قبيل الخرف الذى معناه فساد العقل «نقول خرف الرجل يخرف»، وإنما من سياقات الخرف والخراف والخرافة «نقول خرف الرجل يخرف أى أخذ من طرق فواكه الخريف التى هى الخرافة». وفى لسان العرب أن الخرافة تعنى أيضاً الحديث المستملح من الكذب ، وذكر ابن الكابى فى «كتاب الأصنام» أن خرافة رجل من بنى عذرة، أو من جهينة اختطفه الجن، ثم رجع إلى قومه يحدثهم مما رأى عجباً فكذبوه، ولما طلب الرسول عليه السلام من السيدة عائشة أن تحدثه قالت: أما أحدثك حديث خرافة. فقال لها عليه السلام : خرافة حق!

وإذا ألحقت الألف واللام بخرافة صارت تعنى الحكايات الموضوعة من حديث الليل يجرى على كل ما يستملح ويتعجب منه. وأما الأساطير التى هى جماع خرافات فإنها - على عكس كلمة خرافة - استعملت فى القرآن الكريم فيما يمت للقدماء من أحاديث وما سطر فى الصحف الأولى، قال سبحانه وتعالى فى الأنفال «إن هذا إلا أساطير الأولين» . أى ما ذكروا من أعاجيب الأحاديث سطر فى كتبهم المقدسة، وقال تعالى فى الفرقان «وقالوا أساطير الأولين

أما إذا دخل العنصر البشرى فيما يحكى من وقائع خارقة للطبيعة كحكاية نركيسوس وإيكو Narcissus & Echo سعى ذلك حكايات خرافية. ومن هذه الخرافات عند العرب القدماء ما أوردته الألبات عن صدى المقتول الذى يصور دائماً بهامة تحوم فوق قبر الميت صارخة: اسقونى.. اسقونى! وهذا جرير يذكر الصدى بقوله:

إذا ما الليل هاج صدى حزينا

بكى جزعاً عليه إلى المعات

ويذكر صدى آخر لمزاد بن الأفعس قتل ولم يأخذ أحد من عشيرته بشأره «وبات الصدى يدعو عقالات وضعضما» .

وكذلك القصص التى أبطالها صنوف الحيوانات Fablieux ، ومنها بطبيعة الحال «كيلة ودمنة» التى وراءها أكثر من مغزى سياسى اجتماعى هدف به ابن المقفع إلى تدمير الدولة العربية .

ويطول الحديث بعد ذلك ويتشعب، ويؤكد فى كل الأحوال أن الأسطورة فعل حضارى بدأ جزءاً من العبادة ، ثم تحول إلى حكايات عن آلهة ومردة وأبطال، وفى مرحلة ثالثة - وقد استخدم للتعليل والرمز - صار فلسفة، أو وجهات نظر تهتم بكل ما يسعى وراءه علماء الحضارة.

مجموعة وثائق عن مراحل تطور الإنسان بدءاً بالرمال تحت قدميه ونهاية بالآليات فعل الشمس والهواء والماء وحركة النجوم والكواكب في شرائط وجوده.

ومن هنا - إضافة إلى نشأتها الدينية من حيث هي طقوس وقرايين - صارت الأساطير أداة من أدوات المعرفة وطريقاً للوصول إلى استكناه الواقع بوضع نظام معقول لموجود «يقنع به الإنسان ويجد مكانه الحقيقي ضمنه وبوره الفعال فيه . إنها الإطار الأسبق والإدارة الأقدم للتفكير الإنساني المبدع» كما يقول بعض الباحثين^(١) ولم يكن غريباً والأمر كذلك أن تشكل بطرائق البحث فيها علم سُمي بالميثولوجي Mythology وأساسه my-mutho مأخوذ عن الكلمة اليونانية التي تعني Fable بمعنى حكاية مقدسة عن الآلهة ونصف الآلهة الأبطال.

ومنذ نهاية القرن التاسع إلى اليوم ظهرت - وستظهر - شتى نظريات في تفسير الأسطورة ووظيفتها فنيا ورمزيا فضلا عن كونها تاريخاً اجتماعياً لما قبل التاريخ. وفي دراسة يونج جاوز بها ما بينه أستاذه فرويد في علاقتها بالأحلام، ورأى أن الأساطير موروث لم يفهم بعد كما ينبغي، وأنّ اللاشعور الجمعي عند كل

اكتتبها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلاً. أي أن ما أنزل على الرسول - في رأى منكرى رسالته - هو من قبيل هذه الأقوال التي حفظوها في سطورهم. وإذا قال قائل «سطر علينا تسطيراً» عني «ألف علينا وأتانا بالأساطير» والسطر هنا يعني الأقاويل المنمقة المزخرفة، وهذا لا يخالف ما ورد في اللسان عن الأساطير من حيث كونها «ديانة العرب وكهانتهم».

فإذا عدنا للقول إن لحمة الأساطير هي الحكايات التي وصفت معجماً بأنها خرفة - فاكهة الخريف - وخرافة بمعنى الحديث المستملح الكذب أي المتخيل، وأن منها ما يتصل بعبادة العرب وكهانتهم.. لأدركنا قيمتها في التراث الإنساني كله، وسنرى في قادم إلى أي حد تأخذ بالباب الدارسين وكيف تملك زمام متلقيها شباناً كانوا، أو شيباً .

* * *

هكذا نرى أن الأساطير التي تحتل مكاناً مرموقاً في الأنثروبولوجي - علم الإنسان - لم تكن مجرد حكايات ملأى بالفرائب وحافلة بقوى خارقة تقف وراء كل ما هو ملموس متبدد في العالم، وإنما كانت ثمرة جهد كاشف عن حقيقة الكون وبيدات الحياة وغاياتها. ومن ثم عدت وثيقة أو

(٥) فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ، ط . بيروت ١٩٨٠ ، ص ٩ .

فنزعم من ثم أنها المصدر الأول الذى صدر عنه العقل البشرى. وقد حكى أسطورة أوزيريس - ربما بعد عصر الطوفان بقليل أى منذ وضع المصريون آمون على رأس آلهتهم بعد رع / الشمس - أنه كان فى السماء فأغرته إيزيس التى يعتقد الإغريق أنها أثينا الربية بالنزول إلى الأرض فنزلا. وقد بينت إيزيس / الأرض / الأم الرحم / محبة الحكمة، بينت للناس قيمة زراعة القمح والشعير. فى حين صنع لهم أوزيريس / النيل / قاضى الموتى / القمر / العالم العقلى / إله الحب.. صنع لهم آلات الزراعة، وعلمهم كيف يعلقون الثور بالمحراث، ثم أعطى الناس القوانين وشريعة الزواج والتنظيم المدنى، وعلمهم كيف يعبدون الآلهة. وبعد أن جعل وادى النيل أمة سعيدة تخير جماعة من الناس للتوجه معهم إلى حيث يسبغ بركانه على بقية العالم، ففتح الأمصار وغزا القلوب فى كل مكان، لا بالسلاح وإنما بالموسيقى والبيان^(١).

ولحقت أخيه ست / توفون عليه، انتهز فرصة عودته من مهمته الإنسانية وجمع فى وليمة تكريمة أكثر من سبعين رجلاً حملوا له صندوقاً عجيب الزينة ولا يتسع إلا لجسمه وحده، وما إن دخله حتى أسرع هؤلاء الرجال بقلقه وصبوا الرصاص المصهور

إنسان هو مناط الأساطير التى عاشت فيه - دون أن يدري - ويتحدث برموزها كما تشكل أحلامه. فكأنها - كما يقول إريك فروم - لغة منسية لا يتذكرها إلا نائماً يحلم، وأهمل فروم دورها فى تكوين تخيلاته.

وأياً ما كانت الآراء حول الأساطير العالمية - وكلها ذات منبع واحد، أو منابع مجهولة متقاربة - فإن عدداً حكايات شكّل وقائعها المرموقون من الآلهة كأمون ورع وزئوس وبيطانه إيزيس من معبودات الشعوب كافة لا شك يتسق وتطالع الأزمات الأولى لتخرج الكون من عمانه، أو من سديميته. وكان على الشعر - أول فنون العالم القولية لارتباطه بالطقوس - أن ينتظر طويلاً قبل أن ينفصل عنها. ومن ناحية أخرى حملت الحكاية بأبطالها الكبار كأوزيريس وجلجاميس وزئوس طابع القداسة. فإن كان الأبطال بشراً، أو من الجن والمسوخ صارت حكاية شعبية مع ملاحظة أنها تعجز عن عرض إحدى قضايا الإنسان المصرية. ولقد تتداخل الحدود بين الخرافة، والحكاية الشعبية، وهنا لا يطلب من أيتهما أن يبحث فيها عن مغامرة فكرية لإنسان عاش فى طور الحياة الأقدم!

وفى رأينا أن الأساطير المصرية هى أقدم ما شاع فى أرجاء الدنيا من أساطير،

(١) عصر الأساطير لبولففينش Bulfinch، ألف كتاب رقم ٥٦٤، ص ٤٠١.

الحافظ للروح خفيفا خفيفا .

تلك هي الخطوط العريضة في حكاية إيزيس وأوزيريس، وتعليقا عليها من حيث هي أثر أسطوري نذكر أن بلوتارخوس اليوناني المتوفى سنة ١٢٠ كتب رسالة عن ذلك الأثر، ونشرت مترجمة في «الآلاف كتاب» تحت رقم ٢٣٥ وعلى يد حسن صبحي بكري، وقد قال إن بلوتارخوس هو «أول من عرف العالم منذ بداية التاريخ الميلادي بهذه الأسطورة، فسرده حوادثها سرداً يكاد يكون كاملاً بينما اقتضبتها النصوص المصرية القديمة ونشرتها مبعثرة على جدران الأهرام وجوانب التوابيت وصفحات البردي واللوحات الجنازية»^(١).

ويعتقد الإغريق أن أوزيريس شبيه بالإله ديونوسوس^(٢) وإن يكن أكبر الآلهة لأن أباه زيوس - رب الشمس - أنجبه أول يوم من أيام النسيء الخمسة، في حين ولد أبولو في اليوم الثاني، وتوفون / ست في اليوم الثالث - في غير أونه - وفي اليوم الرابع ولدت إيزيس من أبيها هرميس وكانت تعشق أوزيريس قبل ولادتهما، بل اقترنا في رحم الأم، وولدت نيفتوس / تليانا / أفروديت في اليوم الخامس.

والأمر بعد ذلك - وعبر الرموز الكثيرة

عليه، وألقوه في النيل. وعبثا بحثت إيزيس عنه، لأن الأمواج حملته إلى شواطئ بيبيلوس Byplos بفينيقيا وقد التفت عليه أعشاب بحرية كانت سببا في بعثه إلى الحياة «شجرة احتوت تابوت الإله داخل جزعها» وموت الشجرة فحملت بوديعتها إلى قصر الملك، ولما علم بذلك أنوبيس بن أوزيريس عن طريق سرب الطيور المقدسة، أخبر إيزيس فرحلت إلى الملك. وفي قصره بدت إلهة «يحيطها الرعد والبرق» وإذا مست الشجرة - وقد صارت عموداً - بعصاها السحرية انشقت ليظهر التابوت المقدس.

حملت إيزيس الصندوق إلى مصر، وأخفته في أعماق غابة كثيفة، إلا أن توفون / ست اهتدى إلى مكانه، وأخرج جسد أوزيريس ومزقه إلى أربع عشرة قطعة بعثرها هنا وهناك. وبعد كد طويل تمكنت إيزيس من أن تجمع ثلاث عشرة قطعة واستعاضت عن الأخيرة بقطعة من خشب الجميز، ووارت جثته التراب في فيلو التي صارت مقدسة ويحج إليها المصريون كافة، في حين سكنت روحه العجل أبيس apis وكانت تنقل بموته إلى عجل سواه يسقى من بئر خاصة وليس من ماء النيل الذي يسمّن وارده، في حين يراد أن يكون الجسم

(١) المقدمة ص ٩ .

(٢) ص ٣١ .

الإينوما إيليش عن الخلق والتكوين،
واللحمتان - على أية حال - لم توجدا قبل
الآلاف الثاني قبل الميلاد، وقيل إن بينهما
وبين إلياذة هوميروس نحو ألف وخمسمائة
سنة .

وتعني هنا مجلجاشيش من حيث كونها
أقرب مغامرات العقل الأولى إلى تقريباتها،
وعلى الرغم من أنها حُفِرَتْ نظاماً على عدة
الواح فخارية تَكْسَرُ بعضها وتكَلَّتْ أسطر
منها فإن بقاياها - وهو كافٍ جداً للفهم
والاستنتاج - يدل على عُلُوّ كسبها. وقد عُدَّها
عبد الحق فاضل بعد أن نقلها إلى العربية
الحديثة شعراً باهتاً، من مقام الألب
البشري وأمّ اللامح العالية المشهورة....
واليوم تقف لللحمة - صوت بابل - بثقة
وكبرياء أمام عصرنا، فيولها الباحثون من
العناية ما يضمنون به على الكثير من
المقثورات القيمة الأخرى^(١).

ولأن لباب اللحمة حكايات أسطورية، أو
حكاية واحدة مقسمة، فإتينا تلخصها بغير
تعليق. لأن بعضها - ببساطته - يشرح
بعضها، ولأن وقائعها التي جرت في مدينة
أوروك وما حولها - إذا استبعدت منها
أسماء الآلهة - أقرب إلى وقائع قصص
المخاطرات وإن كان محورها أو هدفها في
آخر الأمر هو الحصول عبثاً على الخلود.

التي تحفل بها الأسطورة المصرية واجتماع
آلهة العالم في كنف إيزيس، أو برعايتها -
يُجعل لمصر بالهتها مكانة محترمة، وتركت
آثاراً واضحة في عبادة الشعوب المجاورة
لها. ولندع هذه الأسطورة الأم إلى بعض ما
تركه تراث العراق، أو الرافدين من حكايات
مقدسة عن بابل بصفة خاصة. وكان يروى
عنها أن الناس بعد الطوفان اجتمعوا
بأرضها ولغتهم السريانية. ثم تفرقوا - كما
يقول المسعودي في كتابه أخبار الزمان -
منهم عاد وثمود وطسم وجديس وإرم
وعملق . ولهؤلاء أساطير متفرقة. وأكثرها
مبتور، لكنها تحمل تصورات أسطورية
بلورت فيما بعد ما يعرف بملحمة
جلجاميش.

وتبدو شخصية جلجاميش - ويكتبه
العراقيون قلميش - نتاج فكر مشترك بين
السومريين والأكانيين. والحق أنه إذا كان
للسومريين - وهم عناصر غير سامية -
فضل وضع البنور الحضارية في أرض
الرافدين، فإن الأكانيين - وهم عناصر
سامية - أحسنوا استنباطها، روهبوا العالم
من ثم حضارة أرهصت بحضارتى
الكلدانيين والآشوريين.

وتتضح أفكار بلاد الرافدين في ملحمة
جلجاميش أكثر مما تتضح في ملحمة

(١) هو الذي رأى (ملحمة قلميش) ط - بيروت ١٩٧٢ ، ص ٩ ، ١١ .

كان يسير نحو التمددين باطراد، تعرضت
عشتار الربة لجلجاميش وعبثًا حاول أنو
الجمع بينهما، إلا أن جلجاميش انصرف
عنها إلى رعيته يصليها عذابا، وإلى انكيو
يواصله بصدافته. وفي إحدى الغابات
القريبة من أوروك كان يعيش الوحش
خمبابا - من فصيلة الغيلان - وكان يثير
الذعر والهلع فتجهز له جلجاميش يساعده
أنكيو، ثم دخلا معا إلى الغابة من بابها
المسحور ونازلا الوحش يساعدهما الإله
شمس فقتلاه. كما قتل ثورا سماويا وضعت
عشتار في طريقهما لتثار لنفسها، وكل ما
حدث هو أن المرض هلك كيان انكيو، وأنهى
حياته، ليعيش جلجاميش حياته حزينا يبيكه
بحراره ويصرح بأنه على فراش المجد
أضجعه «كيما يجيء سادة الأرض يقبلون
رجليك» و

لأطلقن شعري

وأرتدى جلد الأسد

ثم أسير هائما في كل قفر

إلى الأبد

وقد كان حتى وصل إلى جده بعد قتله
الأسود وصراعه مع البشر العقارب
وسؤالهم إياه «ما كان أغراك بهذا السفر
الجسور» فذكر أنه يريد أوتانافشتم

لأنه من مجمع الأرباب

مع أن من الناس كجدّ جلجاميش واسمه
أوتانافشتم Utanapishtim نال نعمة
الخلود بعد أن نجا من الطوفان، وتاق إلى
العثور عليه عساه يجد عنده ما يؤهله لأن
يعيش إلى الأبد، وتقول الملحمة :

لما أتم الخالق المعظم الشأن

خلفه قلميش في أقوم بنيان

حياه بالحسن كثيرا شمس الكريم ...

الرب ... رب العدل والشرائع

حسن الرجولة

كما حياه أند العظيم

رب الحيا والرعد والزعازع

حياه بالبطولة

بعزة وقدرة

وخصه الآلهة العظام بالروائع

ثلاث من إله

وثلاثة الآخر إنسان

لكن هذا الإله الإنسان كان قاسيا على
شعبه، وشكاه أبناؤه إلى الإله أنو والإلهة
أورو، فلم يتغير الحال في أوروك. وبقلب
صحرائها عاش أقوى نصف إنسان اسمه
انكيو - بالجاف الفارسية - صادقة بعد أن
تعرف على بغى اسمها شمخة، كان لها
فضل تهذيبه وتقريبه إلى الأدميين. وفيما

أريد أن أسأله

من أجل من يأسر ي نابو

عن الحياة والممات

كلت يداى

وسار فى طريق الشمس إلى جنة
الجواهر، والتقى مع سدورى صاحبه الحانة
باعتباره «زين الأبطال الذى صال وأردى
من أردى»، وبعد لاي صافته وبيئت أنه يقتل
نفسه فى رحلة ميثوس منها، وعليه أن يفرح
ليلا ونهاراً ويلبس من الثياب كل قشيب زاه،
ثم دلتة صاحبة الحانة على طريقه إلى
أوتانافشتم. وبالوصول إليه - آخر الأمر -
دله على العشب الذى إذا أكل منه لا يموت
قط، فأخذ منه ما أخذ ورجع إلى الملاح
سُرسو نابو ليركبا عباب الموت.

وتتحم هنا قصة الطوفان الشهيرة، وإن
تكن جاءت فى سياق سؤال جلجاميش لجده
«كيف دخلت مجمع الآلهة وفزت بالحياة»
فَسَرَدَ عليه الجد ما وقع له حتى تمَّ إسكانه
«بعيداً عند فم الأنهار».

وعلى أية حال فقد رغب جلجاميش فى
السباحة ليغتسل ويغسل عنه أعباء الرحلة،
فنزل إلى ماء بئر وقد وترك عشب الخلود
على الأرض فابتلعتة حية عظيمة .

وعندها يقعد قلقاش

ويستخرط فى البكاء

وكلم الملاح قائلاً:

من أجل من !

ولات رحلة خلد ولما يشبُ الخلق عن
الطوق، وامتلأت نفوسهم كيداً أعمامهم عن
الجادة، وما كان ثمَّ إله يمدَّ يده إليهم بما
يصبون إليه.

وبرغم اختلاف النصوص التى تلقى
الأضواء على مسارب الحضارة القديمة
وتوجهاتها، فإن ظهور القوى العقلية التى
نظمت «حياة» الآلهة وأبطالهم الخرافيين -
ليس عند المصريين والكنعانيين أو حتى
الساميين كافة وحدهم - كان إيذاناً ببلورة
حكاية الإغريق الأولى نقلاً عن المصريين
بواسطة كريت، وتهذيباً لما نقلوه فى
أساطيرهم عن الساميين. ومن ذلك
أساسيات الفكر الأسطورى نحن يوروبا
الكنعانية / الفينيقية، وكان الإله زيوس
الأغريقى قد اختطفها من أخيها قدموس!

ولم يكن كثيراً أن يقرر فيلو الجبيلى
الذى عاش إلى نهاية القرن الأول الميلادى
أن معظم الأساطير اليونانية «قد بنيت فى
معظمها على أصول كنعانية شرقية»^(١).
ولهذا حديث آخر!

(١) مغامرة العقل الأولى ص ١٠٠ .